معالم الرحمة
في تنزيل القرآن الكريم

إعداد:
د. أبو أروى رضوان بن إبراهيم لخشين
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة – الجزائر.

المقدمة

الحمد لله المختص باسم الرحمن، أنزل القرآن وجعله رحمتان: رحمة في تنزيله، ورحمة في مضمونه، فقال في محكم تنزيله:(تنزيل من الرحمن الرحيم) نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، من كان للأنبياء مسك الختام، وللناس رحمة من العليم العلام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وبعد:

إن موضوع «الرحمة في الإسلام» لمن المواضيع التي تطرب لها القلوب والأسماع، وتهجم على الخاطر أفكارها، وتستحضر البصائر آثارها، ولكن سرعان ما يدرك الفهيم غفلته، وعجلته، إذ يرى الأيدي تعجز عن التسطير، والأنامل مرفوعة عن أزرار الحاسوب، حيرة، ودهشة، ماذا أكتب؟، ماذا أقول؟ أمر مهول أنت تقف أمام صفات ذي الجلال وآثارها، وأنت تعجز عن تصوُّر بعضها، فضلًا عن استيعابها، فصفات الله من علمه فلا يحاط بها. وتزداد الحيرة إذا كان الكلام في أعظم رحمة، وأعظم منة امتن بها الله على عباده، نعمة: القرآن الكريم، كلامه العظيم.

كيف لا وهو كلام الجليل، كلام من أحاط بكل شيء علمًا، وأتقن كل شيء صنعًا، أعجز كل الألسن بيانًا، وأفحم كل العقول برهانًا، بيَّن فأَعلَم، وشرَعَ فأحكم، أمر وزجر، ووعظ وذكر، وقضى فقدر، فله الحمد كله، والثناء كله. وربطًا لموضوع المؤتمر (الرحمة) بالقرآن الكريم، رأيت

المناسبة في الكلام على أوجه الرحمة بتنزيله، بعد كثرة ما قيل في بيان أوجه الرحمة في مضمونه، فرأيت الموضوع طريفًا، وثقله خفيفًا، يناسب حالي، حال قليل الباع، مندرس الرباع، فأسرعت مهرولًا إلى كتب علوم القرآن والتفسير، أستجدي منها مادة الموضوع ومباحثه، وفروعه ومسائله، فخرجت منها بجملة من المباحث، عرضت على وفقها الموضوع فكانت على النسق الآتي:

تمهيد: بين يدي المباحث.

المبحث الأول: معالم الرحمة في تنزلات القرآن.

المبحث الثاني: معالم الرحمة في تنجيم القرآن وتفريقه.

المبحث الثالث: معالم الرحمة في المكي والمدني.

المبحث الرابع: معالم الرحمة في أسباب النزول.

المبحث الخامس: معالم الرحمة في المنسوخ والناسخ.

المبحث السادس: معالم الرحمة في نزول الأحرف السبعة.

خاتمة: لأهم النتائج والتوصيات.

وبعدها كشَّاف لأهم المصادر والمراجع.

وإذ ترى أيها القارئ ما تقدم فلا أدعى سبقًا في شيء منه قل أو كثر، ففضل السابق على اللاحق معلوم، كما أني أعتذر عن ما اعترى بعض المباحث من الركاكة، والعجلة، والقلة، فأسباب التقصير معلومة، غير أني حاولت الكشف حسب المقدور، ومثلي في مثله من مثلكم معذور، وأسأل الله العفو والمغفرة وهو الغفور، وهذا أوان الشروع في المراد، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد
بين يدي المباحث

القرآن الكريم كلام رب العالمين، الرحمن الرحيم، أبان فيه بعضًا من رحمته الواسعة، والعديد من نعمه الواصلة، فلو لم يكن من رحمته إلا ربوبيته لكفى، فكيف وهو الذي اقترن من أسمائه الرحمن بالرحيم، وما اقترنا في آي الذكر الحكيم إلا في المقام العظيم، قال سبحانه في مقام تمجيد وحدانية ألوهيته، قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]، وقال أيضًا: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢].

وقال سبحانه في مقام الشروع والابتداء تنويها بشرف ما يُذكر وعظيم منزلته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة:٢-٣]، ومن هذا الوجه اقترانهما في البسملة في فاتحة سور القرآن، وفي افتتاح رسالة سليمان، عليه الصلاة وأزكى التسليم: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٣٠].

وآخر مواضع ذلك الاقتران العظيم قوله سبحانه: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت:١-٢]، فناهيك بالتنزيل نعمة، وأعظم به منة، وهو المضاف إلى الرحمن الرحيم، دلالة على «أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية»[1]، «فإيثاره سبحانه لهاتين الصفتين على غيرهما من الصفات

(١) البيضاوي، «أنوار التنزيل»، (٦٦/٥).

العلية للإيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله بعباده»[1]، «فهو الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته، وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى، والنور والشفاء، والرحمة والخير الكثير، ما هو من أجل نعمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين»[2].

هو رحمة من الله في مضمونه، فقد بيَّنت سُوره وآياته صُنوف رحمته، وأنواعَها، وأجناسَها، وأسبابَها وموانعَها، وأوقاتها وصفات أهلها.

ورحمة منه سبحانه قبل ذلك بتنزيله، فلولا تنزيله لما عرف مضمونه، فلما كان مضمونه رحمة، كان تنزيله رحمة، إلحاقًا للوسائل بالمقاصد في الأحكام، وقد أشارت إلى هذا المعنى آي الذكر العظام، من حيث الاقتران بين الرحمة وبين القرآن وتنزيله، جمعتها هنا لمناسبة المقام:

فوصف الله سبحانه القرآن الكريم في آيات عدة بأنه (هدى ورحمة)، قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام:١٥٧].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢، ٢٠٣].

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧]. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

(١) الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٢٣/٢٣٠).
(٢) السعدي، «تيسير الكريم»، (٧٤٤). وانظر: «تفسير الفخر» الرازي (٢٧/٥٣٧- ٥٣٨)، وروح المعاني» الآلوسي (١٢/٣٤٨).

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل:٧٦-٧٧] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان:٢-٣] ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية:٢٠].

فهو «هدى من الضلالة»[١]، و«بيان للحق وفرقان بين الصواب والخطأ»[٢]، وهو «رحمة من العذاب»[٣]، «لمن عمل به واتبعه»[٤]، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥].

وجملة (هدى ورحمة) قرنت بـ (المسلمين، والمؤمنين، والموقنين، والمحسنين)، إشارة إلى:

- أنهم هم الذين يصلون إلى الاهتداء به والرحمة به، وأن من لم يكونوا كذلك فقد حرموا الهدى والرحمة[٥].
- واختلافهم في التحقق بذلك بحسب مراتبهم في الدين ومقاماتهم فيه: (إسلامًا، وإيمانًا، ويقينًا، وإحسانًا)[٦].

وقال سبحانه مشيرًا إلى ما في تنزيل القرآن من الرحمة بخلقه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢]. ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء:٨٦-٨٧].

(١) السمرقندي، «بحر العلوم»، (٤٩٦/١).
(٢) الطبري، «جامع البيان»، (٢٤٣/١٢).
(٣) السمرقندي، «بحر العلوم»، (٤٩٦/١).
(٤) الطبري، «جامع البيان»، (٢٤٣/١٢).
(٥) قال ابن القيم: «اليقين هو الإيمان الجازم الذي لا ريب فيه... واليقين أن يقوم الإيمان بها حتى تصير كأنها معاينة للقلب مشاهدة له» «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه»، (٢٠- ٢١)، فاليقين أرفع مراتب الإيمان، ثم هل اليقين هو الإحسان؟ تحتاج إلى تأمل وبحث.
(٦) الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٨-ب/١٥٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص:٤٦] ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [القصص:٨٦] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت:٥١] ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص:٨-٩].

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدخان:٣-٦].

وأوضحُ ذلك وأجلاه قولُ ربنا جل في علاه، وتقدس في عالي سماه: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت:١-٢] ومزيدًا في توطيد هذا الاقتران، سمى الله سبحانه القرآن رحمة في آي الفرقان، ونص على ذلك أهل التفسير والبيان، كيحيى بن سلام(١)، وأبو هلال العسكري(٢) وغيرهما(٣).

فالقرآن كتاب الرحمة، واسمه الرحمة، منزله ربك ﴿ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣] على نبي الرحمة، والمرسل بها ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، تنزيله رحمة، ومضمونه رحمة.

أوله الرحمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾

(١) في «التصاريف» (١/١٣٥- ١٣٦).
(٢) في «الوجوه والنظائر» (٢٢٧، ٢٢٨).
(٣) ذكر جمع من أهل العلم كالسخاوي علم الدين، وابن تيمية، والفيروز آبادي، والبليهي، أن القرآن الكريم من أسمائه (الرحمة)، قال البليهي: «سماه رحمة في خمس عشرة آية»، انظر: «جمال القراء» للسخاوي (١/١٨٠)، أسماء القرآن الكريم»، لآدم بومبا، (٢٦ وما بعدها).

[الفاتحة:٢-٣]، وعند خاتمته تتنزل الرحمة «إذا ختم القرآن نزلت الرحمة عند خاتمته»[١]، سماعه سبيل إلى الرحمة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤]، ومجلس قراءته، ومدارسته تغشاه الرحمة: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ... وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ»[٢]،...

هذه العبارات تضمنت إشارات إلى بعض علامات الرحمة في القرآن الكريم ومعالمها، ودلائلها المرشدة إليها، وأماراتها الدالة عليها، ومن هذه الوجهة اخترت لفظة المعالم في عنوان البحث: (معالم الرحمة في تنزيل القرآن)، فالمعالم: جمع «مَعْلَم، -وهو- الأثر... والعَلَمُ أيضًا العلامة، وما يُهتَدى به، ويستدل به»[٣]، وهي «الدلالة والأمارة، ومنه معالم الأرض»[٤] أي: دلائلها وأماراتها، ومنه «معالم الدين، دلائله»[٥].

واستكمالا لمفردات العنوان بيانا، فالقرآن الكريم كلام الله المنزل، أنزل إنزالًا حقيقيًا، وأكد ذلك توكيدًا جليًا فقال ربنا قولًا زكيًا: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الانسان:٢٣]. فالتنزيل «مصدر من الفعل نزَّلَ، لذا ناسب التأكيد به عليه»[٦]، ثم سُمِّي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٥٤١)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص١٠٧)، والدارمي في «السنن» (٣٤٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٧٢)، وابن ضريس في «فضائل القرآن» (٤٩،٨١)، والفريابي في «فضائل القرآن» (٨٧، ٨٨)، وعزاه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١٧٦/٣) لابن أبي داود ولم أجده في المطبوع. وصحح إسناده النووي في «الأذكار» (١١٧)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١٧٦/٣)، ومحقق سنن الدارمي (٢١٨٤/٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، وغيرهما.

(٣) الحميدي، «تفسير غريب ما في الصحيحين»، (١٣٧/١)، قال ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة» (٨٨/٤): «أصل... يدلُّ على أثَرٍ بالشيء يتميَّزُ به عن غيره».

(٤) ابن سيده، «المخصص»، (٢٥٨/١).

(٥) ابن دريد، «جمهرة اللغة»، (٩٤٨/٢).

(٦) الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٧١/١- ٧٢).

القرآن الكريم لذلك تنزيلا[1]، باعتبار أن ألفاظه أنزلت من الله تعالى[2]، وقد دلت على هذا المعنى كثير من آي الذكر الحكيم منها:

قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:١-٥]، وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة:١-٢]

وقال سبحانه: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس:١-٥] وقال جل شأنه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر:١] ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر:١-٢] ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت:١-٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠]، ﴿نَزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ [الحاقة:٤٣].

وآخر ذلك آية سورة الشعراء التي استجمعت أركان التنزيل كلها، قال سبحانه:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

(١) وعلى ذلك جمع من أهل العلم كـ: السخاوي، وابن تيمية، والزركشي، والفيروز آبادي، والسيوطي، وابن عاشور، وصالح البليهي وغيرهم كثير، وقال البليهي: «سمِّي القرآنُ منزلا، وتنزيلا في اثنتين وأربعين آية»، انظر: «جمال القراء» (١/١٧٧) للسخاوي، و«أسماء القرآن الكريم» لآدم بومبا (٢٦ وما بعدها)، وورد في السنة على قلة كما في حديث ابن عباس ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة...» أخرجه البخاري (٥، ٧٠٨٦)، ومسلم (٩٣٦)، وأحمد (٣١٩١).

(٢) يقال هذا لموافقة آي القرآن الكريم، واجتنابًا لما قد توهمه العبارات الأخرى من عقائد منحرفة، كخلق القرآن والكلام النفسي، مما قد يفهم من قول بعضهم: «أن ألفاظه أنزلت من السماء»، قال ابن تيمية ﷺ: «فعلم أن القرآن العربي منزل من الله، لا من الهواء، ولا من اللوح، ولا من جسم آخر، ولا من جبريل، ولا من محمد، ولا من غيرهما» «بيان تلبيس الجهمية» (٢/٢٥)، والله أعلم.

﴿ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، (المُنزِّل، والمُنزَّل، والنازل به، والمنزَّل عليه، والغاية من التنزيل) ويلاحظ في هذه الآيات ما يأتي:

- جميع السور التي ورد فيها ذكر (التنزيل) سور مكية، وفي ذلك وجه من وجوه إثبات كون هذا القرآن من الله سبحانه، بعدما كذب كفار مكة به، وأما أهل المدينة، أهل الإيمان فلم يكونوا في شك من ذلك.
- ورد في الآيات أنه ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو تنزيل ابتدأ منه كلامًا ولفظًا، وجاء أنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو منزله، ومدبر أحوال نزوله.
- وتبعًا لهذه النقطة الأخيرة فقد اقترن بذكر التنزيل جملة من أسماء الله تعالى منها:

أنه ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا يتضمن، قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أنه ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، و﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، و﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، و ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، و﴿مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ قال الشنقيطي: «قَدْ دَلَّ اسْتِقْرَاءُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلا، إِذَا ذَكَرَ تَنْزِيلَهُ لِكِتَابِهِ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، الْمُتَضَمِّنَةِ صِفَاتِهُ الْعُلْيَا... وَقَدْ تَكَرَّرَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ، ذِكْرُهُ بَعْضَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، بَعْدَ ذِكْرِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ،... وَلا يَخْفَى أَنَّ ذِكْرَهُ جَلَّ وَعَلا هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى الْعَظِيمَةَ، بَعْدَ ذِكْرِهِ تَنْزِيلَ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، يَدُلُّ بِإِيضَاحٍ، عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَجَلالَةِ شَأْنِهِ وَأَهَمِّيَّةِ نُزُولِهِ»[1]. ومن تلك الأسماء التي لها علاقة بالرحمة، اسمي الرحمن والرحيم، فتنزيل القرآن له نصيب منهما،

(١) الشنقيطي، «أضواء البيان»، (٦/٣٥١).

واسم الرب لما في معنى الربوبية من الرعاية والإنعام على المربوب بما يصلح حاله.

- دلت آية سورة الشعراء بلفظها على أركان التنزيل، ودلت باللازم منها على أن للتنزيل كيفية عُلم بعضها من نصوص الوحي كما سيأتي.
- أن التنزيل في الآيات السابقة يأتي بمعناه المصدري أي: (الإنزال) وطريقة إنزاله، ويأتي بمعنى المفعول أي: (المنزَّل)[1]، وهو القرآن الكريم، «تسمية للمفعول باسم المصدر»[2].

ومن كل ما تقدم يعلم المقصود من هذا البحث المعنون: (معالم الرحمة في تنزيل القرآن الكريم)، فالقرآن الكريم الذي جعله رب العالمين سبحانه رحمة لعباده، ونعمة من عظيم نعمه، ومنة من جزيل مننه، قد ظهرت علاماتها وأماراتها في عملية تنزيله، من حيث: أحوالُه، وأنواعُه، وكيفيتُه، وأمكنتُه، وأزمنتُه، تلك العلامات والدلائل والأمارات هي ما سيحاول البحث بيانه والكشف عنه.

(١) قال ابن عاشور فاتحة سورة الزمر:«(تَنْزِيلُ) مَصْدَرٌ مُرَادٌ بِهِ مَعْنَاهُ الْمَصْدَرِيُّ لا مَعْنَى الْمَفْعُولِ»(٢٣/٣١٤)، وقال في موضع سور يس: «مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أُخْبِرَ عَنْهُ بِالْمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَحْقِيقِ كَوْنِهِ مُنَزَّلًا» (٢٢/٣٤٧).

(٢) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى»، (١٢/٢٤٨).

المبحث الأول
معالم الرحمة في تنزلات[1] القرآن

وصل القرآن الكريم إلى رسول الله ﷺ وحيًا، وقبل ذلك كانت له أحوال أوضحتها آي التنزيل الحكيم، وهي ما يسمى أيضًا بـ (تنزلات القرآن)، وقد اختلف في عددها، فمنهم من جعلها أربعة[2] تنزلات،

ومنهم من جعلها تنزلين اثنين فقط، ومنهم من جعلها ثلاثًا كالآتي:

التنزل الأول:

كون في اللوح في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج:٢١-٢٢]، وهي دالة على الوجود الأول للقرآن الكريم في اللوح المحفوظ[3]، وبين ذلك في موضع آخر فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

(١) عبر بعضهم بـ (وجودات)، وأكثر الكاتبين في هذا الموضوع، يقولون (تنزلات) كـ: السخاوي في «جمال القرء» (١٥٢/١)، والزرقاني في «مناهل العرفان» (٣٩/١)، وصبحي الصالح في «مباحث في علوم القرآن» (٥١)، ومحمد بكر إسماعيل في «دراسات في علوم القرآن» (٢٤)، ومحمد معبد في «نفحات في علوم القرآن» (١٩)، ومحمد الشايع في «نزول القرآن الكريم» (١٣)، ومصطفى ديب البغا في «الواضح في علوم القرآن» (٤٦)، ونور الدين عتر في «علوم القرآن» (٢٦)، ومحمد بازمول في «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام» (١٧).

(٢) كمساعد الطيار في «المحرر في علوم القرآن»، (٧٥- ٧٦)، وهو التنزيل السنوي: «ينزل إلى السفرة في ليلة القدر من كل سنة إبان بعثة النبي ﷺ ما سينزل عليه خلال السنة»، ونقل قول مقاتل بن سليمان رحمه الله في تفسيره.

(٣) وهو: (أم الكتاب) في قول جماعة من المفسرين، انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣٠٩/٥)، وتفسير السمرقندي (٥٦٧/٣)، وتفسير ابن أبي زمنين (١١٦/٥)، وعزاه لمجاهد رحمه الله مكي في «الهداية» (٨١٨٨/١٢)، والواحدي في «البسيط» (٣٩٨/٢٣).

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف:٣-٤]، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القرآن العربي كائن وموجود في ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا﴾ أي: اللَّوح المَحْفُوظِ(١)، وأضاف سبحانه ظرف (لدى) إلى نون عظمته إيذانا باستكمال (أم الكتاب = اللوح) أحوال العظمة، والمنعة، والحفظ المقرر في آية سورة البروج، والمؤكد في آية الواقعة(٢) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة:٧٧- ٧٩]، فالكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ على قول بعض أهل التفسير(٣).

وقد نازع بعضهم في عد وجود القرآن الكريم في اللوح تنزلًا، بحجة أنه: «لم يرد لفظ النزول مقترنًا به قط، وعلى هذا فلا ينبغي أن نسميه نزولًا، أو تنزلًا»(٤)، ورغم عدم اقترانه بلفظ النزول فلا مانع من جعله نزولا أو تنزلا، كما عبر به أكثر الباحثين، فمما لا شك فيه عند أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه فوق جميع خلقه، واللوح المحفوظ أحد مخلوقاته، فلا شك أن الله فوقه، والقرآن الكريم كلام الله وصفته، وبغض النظر عن كيفية إيجاد الله للقرآن في اللوح، فهو وجود في مخلوقٍ اللهُ سبحانه فوقه، ولازم ذلك أن يكون نزولًا وتنزلًا(٥)، والله أعلم.

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم»، (٢١٨/٧)، وعزاه لابن عباس ومجاهد، وكذا قوله تعالى: ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فسره باللوح جمع من المفسرين: وهو قول ابن عباس وعطاء وعكرمة، كما في «البسيط» للواحدي (٣٨٠/١٢)، وهو قول: «قتادة وابن زيد وابن جريج، وعليه أكثر أهل المعاني، وعامة المفسرين» كما في «الهداية» لمكي (٣٧٥٤/٥)، وعزاه للمفسرين أيضًا ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥٠٠/٢).

(٢) فسورة البروج قبل الواقعة كما هو صريح بعض الروايات، وما تشير إليه أخرى، انظر: ا«لإتقان» للسيوطي (٤٢/١- ٤٣).

(٣) وقال آخرون هي الصحف التي بأيدي الملائكة على ما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس]، وهو اختيار ابن القيم من وجوه عدة عددها في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» (٢٢٦)، وقال آخرون: هو المصحف الذي بأيدي المسلمين، وهذا القول أضعفها، والله أعلم.

(٤) أبو شهبة، «المدخل لدراسة القرآن»، (٤٨)، وانظر: «نزول القرآن الكريم» لمحمد عمر حويه (٢٢)، و«نزول القرآن الكريم» للشايع (٢٧).

(٥) وهو المعروف من معنى النزول في اللغة الدال «على هُبوط شيء ووقُوعه»، كما في «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٣٣٤/٥)، وانظر كلامًا لابن تيمية في «المجموع» (٢٥٧/١٢) في هذا المعنى.

التنزل الثاني:

إنزاله جملة إلى السماء الدنيا، ودليله ظاهر الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر:١]،﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان:١-٣]

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، فظاهرها دال على أنه أنزل كاملًا، في ليلة القدر المباركة، وهي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك، ويدل لذلك ما صح عن ابن عباس[١] ﷺ في قوله: « أنزل الْقُرْآن فِي لَيْلَة الْقدر جملَة وَاحدَة من الذّكر الَّذِي عِنْد رب الْعِزَّة حَتَّى وضع فِي بَيت الْعِزَّة فِي السَّمَاء الدُّنْيَا»[٢]، وهذا لا يمنع أن يكون ابتداء الإنزال المنجم بغار حراء في ليلة القدر[٣]، فيتفق في ليلة القدر النزول الجملي، وبداية المفرق، قال علم الدين السخاوي رحمه الله: «وقوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾يشمل الإنزالين»[٤].

(١) قال ابن تيمية في «المجموع» (١٢/١٢٦): «وغيره من السلف» كسعيد بن جبير، والربيع بن أنس رحمهما الله، انظر: «السنن» لسعيد بن منصور (٢/٢٩٣)، «الدر المنثور» للسيوطي (٧/٣٩٩، ٨/٥٦٧)، وسفيان الثوري كما في «معجم ابن المقرئ» (٣٥٥).

(٢) ورد هذا الأثر عن ابن عباس ﷺ من عدة طرق، وبألفاظ متقاربة، تشترك في إثبات التنزل الجملي للقرآن الكريم إلى بيت العزة، وقد خرجه بتوسع محمد بازمول في كتابه «القراءات وأثرها ...» (١٩- ٢٢)، وصحح هذا الأثر جمع من الأئمة كـ: الحاكم في «المستدرك» صححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه ابن كثير، والزركشي، والسيوطي، وقال ابن النحاس في «إعراب القرآن»: «وأما الحديث في تنزيل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر فصحيح غير مدفوع عند أهل السّنّة وإنّما يدفعه قوم من أهل الأهواء» (٥/١٦٥).
وابن عباس ﷺ يخبر عن أمر غيبي لا تبلغه العقول فله حكم الرفع، ومتعلق بالقرآن الكريم، فلا تعلق للإسرائيليات بذلك، وصح عنه في البخاري (٢٥٣٩) عدم الأخذ عنهم في أمور الدين مطلقا، وجعل القرطبي هذا التنزل: «لا خلاف» فيه (٢/٢٩٧).

(٣) قال ابن كثير: «والمشهور أنه بعث عليه السلام في شهر رمضان كما نص على ذلك عبيد بن عمير، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما» «السيرة النبوية» (١/٣٩٢). وقال ابن حجر: «وابتداء وحي اليقظة كان في رمضان» «فتح الباري» (١/٣٧)، و(٩/٥٧، ١/٤٣)، واختار صاحب «الرحيق المختوم» (٥٦) - بحثًا وتحقيقًا - أنه في اليوم الحادي والعشرين من رمضان.

(٤) السخاوي، «جمال القراء»، (١/٢٢- ٢٣)، وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/٥).

التنزل الثالث:

نزوله مفرقًا ومنجمًا، ودليله في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان:٣٢]، وآيات أخرى يأتي ذكرها في المبحث الآتي.

هذه التنزلات الثلاث، يهمنا منها الأول والثاني، من حيث تلمس معالم الرحمة فيهما، على ضوء ما فيهما من حكم، فمما يذكر لهاذين التنزلين الجُليلين:

أولًا: محض التفضل والإنعام، بالتعليم والإعلام، باستقرار القرآن في سابق علم الرحمن سبحانه، ثم حفظه له مسطورًا في ديوان عظيم، محفوظ كريم، عظيم الخلق، حوى ما جلَّ ودقَّ، فليس إلى هذا من سبيل، إلا بإعلام الجليل.

ثانيًا: لا يخفى على كل عارف ما في ذلك من عظيم مقامات الإيمان، وهو يرى بعين بصيرته تلك العوالم الفوقية، والملكوت العلوي، وما أجراه الله فيه، تمهيدًا لما سينزل إليه من خير دينه ودنياه.

ثالثًا: إن كون القرآن الكريم في اللوح (المحفوظ)، والكتاب (المكنون)، وبيت (العزة)[1]، مؤذن ببالغ حفظ الله تعالى له، وعظيم صيانته، عن كل شيطان مارد، أو جني عفريت، وذلك من عظيم الرحمة والمنة، لما يضفيه على قلب العبد من الطمأنينة المطلقة[2].

(١) ثلاثها من الصفات الدالة على بالغ الصيانة والرعاية والحراسة فـ «إذا كان القرآن في لوح، وكان اللوح محفوظًا، فالقرآن محفوظ أيضًا» «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٧/٦). ومكنون: أي: «مصون عند الله لا يمسه شيء من أذى» «جامع البيان» (١٤٩/٢٣)، والبيت أضيف للعزة لاستكماله معانيها من قوة وشدة وقهر، ورفعة وشرف ومنعة، وما في معناه انظر: «معجم المقاييس» لابن فارس (٣٨/٤).

(٢) علي بن سليمان العبيد، «حفظ القرآن الكريم»، (٩).

رابعًا: أن «في تعدد النزول، وأماكنه مرة في اللوح، وأخرى في بيت العزة، وثالثة على قلب النبي ﷺ: في ذلك التعدد مبالغة في نفي الشك عن القرآن، وزيادة للإيمان، وباعث على الثقة فيه»[١].

خامسًا: وأما إنزاله إلى السماء الدنيا جملة: فـ «في ذلك تكريم بني آدم، وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عزّ وجلّ بهم، ورحمته لهم»[٢].

سادسًا: و«فيه تفخيم لأمره، وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب، المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم»[٣]، وفي ذلك من منة الله على خلقه ولطفه بهم ولهم، ما هو ظاهر.

سابعًا: وفي وقوع هذا التنزيل جملة إكرام وإنعام على نبينا ﷺ وعلى أمته لئلا تعلوها أمة من الأمم في شأن من الشؤون، فجمع لها الإنزال جملة وتفصيلا[٤]، جملة كسائر الأمم قبلها، وتفريقًا وتنجيمًا مزيدًا في الاعتناء والامتنان عليها.

ثامنًا: وقوع هذا التنزيل في ليلة القدر المباركة، فيه مزيد امتنان وفضل وإنعام من الرحمن، لما فيه من الاصطفاء بعد الاصطفاء، فقد اصطفى لخير كتبه خير الأوقات والليالي إنزالًا، وخير البشرية إرسالا، قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، فـ «عظَّم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصًا به دون غيره،...، والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (٤٢/١).
(٢) السخاوي، «جمال القراء»، (١٥٣/١).
(٣) أبو شامة، «المرشد الوجيز»، (٢٤) وانظر: «البرهان» للزركشي (٢٣٠/١)، و«الإتقان» للسيوطي (١٤٩/١).
(٤) السخاوي، «جمال القراء»، (١٥٤/١)، أبو شامة، «المرشد الوجيز»، (٢٤). وفيه بحث سيأتي.

فيه»[1]، وقال السعدي: « يقول تعالى مبينًا لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ﴾ وذلك أن الله تعالى، ابتدأ بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة...»[2].

تلك بعض ما في ذينك التنزلين من أوجه الرحمات، مما فتح به رب البريات، لنصرف القول بعدها إلى الكلام في ثالثها، في المبحث التالي:

(١) الزمخشري، «الكشاف»، (٤/ ٧٨٠)، وانظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (٣٢/ ٢٢٨)، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥/ ٣٢٧).

(٢) عبدالرحمن السعدي، «تيسير الكريم الرحمن»، (٩٣١).

المبحث الثاني
معالم الرحمة في تنجيم القرآن وتفريقه

تنزيل القرآن منجمًا ومفرقًا مقرر في الآيات القرآنية، تصريحًا وإشارة، وقد تقدم ما يدل لذلك صراحة، ونتبعه بما هو إشارة[1]، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء:١٠٤] وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ [يونس:١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل:١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل:١١٨]، وغيرها من الآيات، وأما دلائل ذلك من السنة والسيرة النبوية فأكثر من أن تحصر، بل هو مما تجمع عليه أمة الإسلام فضلًا عن علمائها.

(١) قال الرازي في «تفسيره»: تَوْصِيلُ الْقَوْلِ هُوَ إِتْيَانُ بَيَانٍ بَعْدَ بَيَانٍ، وَهُوَ مِنْ وَصَلَ الْبَعْضَ بِالْبَعْضِ، وهذا القول الموصل يتحمل أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا يَتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ...» (٦٠٧/٢٤).

وقد أوضحت آيات القرآن الكريم بعض كيفية هذا التنزيل فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة::٤٠-٤٣].

فالقرآن الكريم وحي رب العالمين، بواسطة جبريل الأمين، على قلب سيد المرسلين، يُوحي الرحمن ما يشاء من وحيه، على ما تقتضيه حكمته وربوبيته، فيحفظه الأمينان بفضل ومنة من الرحمن، ولولا رحمته لما كان لهما ذلك في الإمكان، ثم يتلوه الصادق الأمين، ويَتلُو التلاوة بالتبيين، لتقوم حجة الله على الثقلين.

نزل القرآن منجمًا على الحبيب ﷺ مدة نبوته ورسالته، على اختلاف الأزمان والأحوال، كان نتاج استقصائها، وتتبعها وتأملها، أنواعًا وأفنانًا من علوم القرآن، منها:

(المكي والمدني، الحضري والسفري،...) إلى النوع السادس عشر من أنواع علوم القرآن التي ذكرها السيوطي[1] رحمه الله في «الإتقان»، ومن كل نوع من تلك الأنواع لاحت جلية معالم الرحمة والامتنان، من الرحيم الرحمن، على جيل التنزيل من الأنصار والمهاجرين، وعلى من بعدهم من المسلمين، وهو ما سأحاول تتبعه التالي، في النقاط الآتية:

أولا: إن من عظيم منة الله على نبينا ﷺ أن اصطفاه لنفسه، وجعله

(١) في الإتقان (١/ ٢٧- ٢٨)، وهي: (النهاري والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، الأرضي والسمائي، أول ما نزل وآخر ما نزل، أسباب النزول، ما نزل على لسان بعض الصحابة، ما تكرر نزوله، ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه، معرفة ما نزل مفرقًا وما نزل جمعًا، ما نزل مشيعًا وما نزل مفردًا، ما أنزل منه على بعض الأنبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ، في كيفية إنزاله).

من بين سائر البشر رسول وحيه، للعالمين بشيرًا ونذيرًا، وقال سبحانه مبينًا رحمته على نبيه إذ أوحى إليه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦]، أي: «إلا أن ربك رحمك فأنزل عليك»[١].

ثانيًا: إن ابتداء النزول المفرق ليلةَ القدر المباركة رحمةٌ من الله، ومزيدُ إنعام منه، على ما سبق بيانه آنفا.

ثالثًا: لما كان وحي الله لنبيه بواسطة الرسول الملكي جبريل، كان في ذلك مزيد رحمة وإنعام على نبينا ﷺ وأمته، إذ لم تكن للأمم قبلها مزية فوقها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبينًا هذا المعنى: «وَمَنْ قَالَ: إنَّ جبرائيل أَخَذَهُ عَنْ الْكِتَاب، لَمْ يَسْمَعْهُ مِنْ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ مِنْ وُجُوه. مِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ كَتَبَ التَّوْرَاةَ لِمُوسَى بِيَدِه؛ فَبَنُو إسْرَائِيلَ أَخَذُوا كَلَامَهُ مِنْ الْكِتَاب الَّذِي كَتَبَهُ، وَمُحَمَّدٌ عَنْ جِبْرِيلَ عَنْ الْكِتَاب فَهُمْ أَعْلَى بِدَرَجَة»[٢]، وهو لازم باطل، فدل على بطلان الملزوم، فنبينا ﷺ أعلا درجة لما كان وحي الله إليه بواسطة ملك الوحي فقط.

رابعًا: إن في تنزله مفرقًا بعد نزوله جملة مزيد إنعام على نبينا ﷺ وأمته، وتفضيلًا لها على غيرها من الأمم بإنزاله جملة، ورحمة بها في تنزيله منجما[٣].

خامسًا: قد حفظ الله سبحانه السماء الدنيا إذ أوحى إلى خاتم رسله، خاتمة كتبه[٤]، فبعدما كان في السماء الدنيا مقاعد يُقعَد

(١) الفراء، معاني القرآن، (٣١٣/٢)، وانظر: «جامع البيان» للطبري (٦٤٢/١٩).
(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٢٢٤/١٥)، وفي هذا أيضًا إبطال لقول من قال إن ابتداء التنزيل المنجم كان من بيت العزة.
(٣) سواء أكان التنجيم من خصائص هذه الأمة على قول بعضهم، أم كان من خصال الشرائع جميعها.
(٤) علي بن سليمان العبيد، «جمع القرآن الكريم»، (١٠).

فيها لاسترق السمع، جعل الله نجومها شهبًا مرصدةً للشياطين، فقال رب العالمين: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات:٦-١٠]، وهو من مظاهر حفظ الله تعالى لكتابه، التي شملها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]، «حَفِظَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْ تَزِيدَ فِيهِ الشَّيَاطِينُ بَاطِلًا أَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ حَقًّا»(١)، وذا من أعظم رحمات الله على خلقه أن تولَّى هو سبحانه حفظ كتابه.

سادسًا: ما جاء صريحًا في قوله تعالى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ﴾ [الفرقان:٣٢] كان إنزاله منجمًا ومفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ في كل مرة ينزل عليك﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان] وهذا من جميل رحمة الله بعبد ورسوله ﷺ، قال أبو شامة: « فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه»(٢).

سابعًا: أن في تنجيم القرآن وقراءته ﷺ له على المؤمنين على مكث، مزيدًا من التثبيت لهم على أمور الدين والشريعة، قال سبحانه:﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾ [النحل:١٠١-١٠٢]

﴿بِٱلْحَقِّ رَّبِّكَ مِن ٱلْقُدُسِ رُوحُ نَزَّلَهُۥ قُلْ﴾، «ليثبِّت الله الذين آمنوا

(١) القرطبي، «الجامع لأحكام القرآن»، (٥/١٠).
(٢) أبو شامة، «المرشد الوجيز»، (٢٨).

على الإيمان بأنه كلامه، وأنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم»[١]، وليثبتهم «بما فيه من الحجج والآيات»[٢]، و«ليحفظ قلوب الذين آمنوا على الإسلام... ولتَطمئن إليه قلوب الذين آمنوا، وَهُدىً من الضلالة وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ بالجنة»[٣]، وكل هذا من صنوف نعمه على عباده، ورحمته بهم.

ثامنًا: إن في تنزيل القرآن الكريم منجمًا ومفرقًا مزيدًا من التواصل بين الرسولين، وهذا مما يُسرُّ به كل واحد منهما، فقد كان كل منهما يشتاق للآخر، حتى قال ﷺ: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت: «﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم:٦٤]»[٤]، وجاء عنه ﷺ أنه قال لما أبطأ عليه جبريل: «يَا جِبْرِيلُ مَا نَزَلْتَ حَتَّى اشْتَقْتُ إِلَيْكَ، قَالَ -جبريل-: أَنَا كُنْتُ أَشْوَقَ إِلَيْكَ وَلَكِنِّي مَأْمُورٌ»[٥]. فقد كان ﷺ يُروي مرة بعد مرة شوقه إلى جبريل بهذا التنزل المتواصل، ولو نزل القرآن جملة لما كان ذلك، وإلى هذا المعنى أشار أبو شامة بقوله: « ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وتجديد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة»[٦]، فإنه « إِذَا شَاهَدَ جِبْرِيلَ حَالا بَعْدَ حَالٍ يَقْوَى قَلْبُهُ بِمُشَاهَدَتِهِ فَكَانَ أَقْوَى عَلَى

(١) البيضاوي، «أنوار التنزيل»، (٣/٢٤٠).
(٢) القرطبي، « الجامع لأحكام القرآن »، (١٠/١٧٧).
(٣) السمرقندي، «بحر العلوم»، (٢/٢٩٢)، وانظر: «التفسير» لابن كثير (٤/٦٠٣).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٦٤، ٤٤٥٤، ٧٠١٧).
(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٨/٢٢٣) من طريق قتادة به، وابن أبي حاتم في «تفسير» (٧/٢٤١٤) من طريق عكرمة، عزاه في «فتح الباري»: لـ «عَبْد بْنُ حُمَيْد وبن أبي حَاتِم مِنْ طَرِيق عِكْرِمَةَ » (٨/٤٢٩)، وكذا في «الدر المنثور» (٥/٥٣٠)، وهو حديث مرسل، وقال ابن كثير في «تفسيره»: «وَهُوَ غَرِيب» (٩/٢٧٤)، وحسن حكمت بشير طريق قتادة في «الصحيح المسبور» (٣/٣٤٥)، وانظر: «فتح القدير» للشوكاني (٣/٣٤٥).
(٦) أبو شامة، «المرشد الوجيز»، (٢٨).

أَدَاءِ مَا حُمِّلَ، وَعَلَى الصَّبْرِ عَلَى عَوَارِضِ النُّبُوَّةِ وَعَلَى احْتِمَالِهِ أَذِيَّةَ قَوْمِهِ وَعَلَى الْجِهَادِ»[1]. وكذلك كانت حال جبريل عليه السلام ولا شك.

تاسعًا: ويتبع ذلك أن في تفريق نزول القرآن الكريم تفريقًا لما تضمنته آياته من التكاليف والأحكام، قال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦] لَوْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ جُمْلَةً وَاحِدَةً عَلَى الْخَلْقِ لَنَزَلَتِ الشَّرَائِعُ بِأَسْرِهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً عَلَى الْخَلْقِ، فَكَانَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، أَمَّا لَمَّا نَزَلَ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا لا جَرَمَ نَزَلَتِ التَّكَالِيفُ قَلِيلا قَلِيلا فَكَانَ تَحَمُّلُهَا أَسْهَلَ»[2]، وهو من عظيم رحمة الله بخلقه ولطفه ورأفته بهم.

عاشرًا: إن في تفريق آي الذكر تنزيلًا لتيسير حفظه على الأمة، وهو من معاني الآية السابقة، خاصة على قراءة من قرأ ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾[3]، «ولا شك أن تفريق النص الذي يراد حفظه يُيَسر الأمر على من يريد أن يحفظه»[4]، فقد أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ مفرقًا ليقرأه على المؤمنين على مَهَل وترسل، ولـ«تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين»[5]، فسبحان من شمل تنزيله للقرآن مفرقًا كل هذه الرحمات، والحكم والنعم والمسرات.

(١) الرازي، «مفاتيح الغيب»، (٤٥٧/٢٤).
(٢) الرازي، «مفاتيح الغيب»، (٤٥٧/٢٤).
(٣) قال ابن جني: هي «قراءة علي وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم والشعبي والحسن بخلاف وأبي رجاء وقتادة وحميد وعمرو بن فائد وعمر بن ذر وأبي عمرو بخلاف» «المحتسب في القراءات الشواذ» (٢٣/٢)، وانظر: «الجامع» للقرطبي (٣٣٩/١٠)، و«القراءات الشاذة وتوجيهها» لعبد الفتاح القاضي (٥٤٩).
(٤) غانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (٣٣)، وهل من ذلك تيسير حفظه على النبي ﷺ كما ذكره بعضهم كـ: أبي شامة في «المرشد» (٢٨)، والزمخشري في «الكشاف» (٢٨٣/٣)، وغيرهما؟ الظاهر عدم ذلك فقد صرح القرآن أن حفظ الوحي مكفول للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى]، و(لا) هنا نافية، بمعنى أنك تحفظه ولن تنساه، وليس أدل على ذلك أيضًا من حفظ آدم للأسماء كلها التي علمه الله إياها دفعة واحدة، والله أعلم.
(٥) الطاهر ابن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٢٣١/١٥)، وانظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (١٨٨/٣).

المبحث الثالث
معالم الرحمة في المكي والمدني

نزول القرآن منجمًا، واستمرار الوحي الرباني بحسب الوقائع والأحوال، ثم بداية الدعوة بمكة، وانتشارها في البلدان، وكذا الهجرة وما نتج عنها من استقرار الكيان الإسلامي بالمدينة، كل ذلك كان سببًا في تنوع مواضع نزول القرآن الكريم وموضوعاته[1]، فأما مواضيعه فأكثر من أن تعد أفرادها، وأما أنواعها فهي: (عقيدة وشريعة وقصص).

فأما مواضعه فكان منه المكي والمدني، السفري والحضري، النهاري والليلي، الصيفي والشتائي، الفراشي والنومي، الأرضي والسمائي، أول ما نزل وآخر ما نزل، ويجمعها جميعًا (علم المكي والمدني)[2].

علم مكي القرآن ومدنيه من العلوم الجليلة، والمعارف النبيلة، ذو أهمية بالغة لِمُعاني معاني التنزيل، وضرورة لازمة لمستنبط أحكام القرآن بالنظر والتأويل، ولذا كان كلام أهل العلم في بيان فائدته غير قليل.

تضمنت مباحثه أفنانًا وارفة، ووفى بمعارف واسعة وفاء: «جعل بحوثه أشتاتًا وألوانًا، فهو في آن واحد ترتيب رباني، وتحديد مكاني، وتبويب

(١) انظر: «المعجزة الكبرى» لأبي زهرة، (١٩).
(٢) انظر: «الإتقان» السيوطي، (٢٨/١).

موضوعي، ويقين شخصي»[١]. وقد عُلم لدى الدارسين أن في تحديد معنى المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة، لها باطن، وظاهر:

ظاهرها اختلاف في العبارة والاعتبار، بين مكان النزول وزمانه وتوجه الخطاب، وهي اتفاق على التدقيق والتحقيق[٢].

وباطنها الرحمة الإلهية الواصلة للعبيد، والمتواصلة على استمرار الزمان القريب والبعيد، باطنها الرعاية الربانية بما أنزله روحًا وأمرًا، بمكة والمدينة قبل الهجرة، وبعدها دينًا وشرعًا، نهيًا وأمـرًا، رحمة امتزجت بحكمة فأخرجت في مخاض عسير أحوال المسلمين من ضيق وذل وشقاء وابتلاء إلى فسحة دين وعزة ونقاء وارتقاء، يصحبهم في هذا وذاك قرآن مكة والمدينة بخصائص معلومة فيهما.

تلك الخصائص التي يلحظ فيها الناظر مزيد الاعتناء الرباني، والعطاء الإلهي المعين على نوائب الزمان، والقامع للأعداء في كل مكان، ففي ظل السيطرة القرشية الظالمة المعاندة، يأتي القرآن المكي قوي البيان والعبارات، قصير المقاطع والآيات، واصلًا بإيجازه إلى المسامع النافرات، شديد الزجر لتكذيبهم، قوي التحدي لفصاحتهم، دامغًا لاعتراضهم، بالغ الحجة ناصع المحجة، تصحيحٌ للعقيدة، ورسمٌ لمعالم الشريعة، إلجاء لصحيح العقول إلى الحق، بقص القصص الصدق، داعيًا إلى المكارم والفضائل، وجميل الخصال والشمائل.

ليأتي بعده القرآن المدني، غير بعيد الخصائص عنه، وغلب عليه إطناب آياته بلاغة، إيضاحًا وبيانًا للأحكام الشرعية، والأحوال التعبدية،

(١) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، (١٦٧).

(٢) قال مساعد الطيار: «والمقصود هنا التنبيه على أنه لا تعارض بين مذهب السلف في التعبير عن النُّزول بالمكان، وما ذهب إليه المتأخرون من العلماء من أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ لأن السلف كانوا يعتنون بذكر المكان، ويعملون بالزمان في تطبيقاتهم التفسيرية» «المحرر في علوم القرآن» (١٠٥).

والحدود الردعية، حث على دعوة الناس باللسان والسنان، وأيد المؤمنين على أهل الكتابين والمنافقين، فعرَّف منهم الأقوال والأفعال، وفضح منهم كل حال، ثم يكون به حسن الختام، إيذانًا باكتمال الدين على التمام، لجميع الأزمان، وكافة الأنام.

فأين عين البصيرة عن تلك الرحمات؟

ففي قصر آيات المكي رحمة لما في ذلك من يسر قراءة، وسهولة حفظ، وقوة إعجاز، وفصاحة إيجاز[1].

وفي طول آيات المدني مثلها، وقوة تأصيل، واستطراد تفصيل، إطناب وإسهاب، تلذذًا وأجرًا بآي الكتاب.

وفي هذه وتلك أمثالهما، برسم سبيل الدعوة إلى الله تعالى التي: «تحتاج إلى نهج خاص في أسلوبها إزاء كل فساد في العقيدة، والتشريع والخلق والسلوك، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها، وتربية اللبنات التي تأخذ على عاتقها القيام بها، ولا تسن أسسها التشريعية، ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب، وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدًى من الله وبصيرة»[2]، وإلى هذا المعنى تشير السيدة عائشة ﵂ حين قالت: «... إنما نزل أوّل ما نزل منه -أي: من القرآن- سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر:٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[3]. أشارت إلى الرحمة الربانية،

(١) محمد بكر إسماعيل، «دراسات في علوم القرآن»، (/٤٩- ٥٠).
(٢) مناع القطان، «مباحث في علوم القرآن»، (٤٩)، أشار إلى هذا المعنى أيضًا من التدرج في الدعوة: الزرقاني في «مناهل العرفان» (١٦٧/١)، وأبو شهبة في «مدخل لدراسة القرآن» (٢١٩).
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠٧، ٤٥٩٥)، وغيره.

و«الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام... »[1]. فمكي القرآن ومدنيه «يهدي سير النبي ﷺ وأصحابه خُطوة خطوة نحو.. الهدف، وهو يحوطهم كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة، فهو يعزز جهودهم، ويقوي إرادتهم، حتى تكلل ذلك الكفاح بالنصر المبين، فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام لا سر لها إلا في هذا التنجيم»[2].

ومن توابع موضوع المكي والمدني، معرفة أول ما نزل، وآخره، وما انطوى تحتهما من معالم للرحمة، وهما وجهة ما يأتي من كلام:

فأما أول ما نزل[3] على نبينا محمد ﷺ يوم حراء فقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:١-٥]، وفي هذا الاستفتاح الإلهي براعة استهلال[4]، لتلك الصلة العظيمة بين الأرض والسماء، و«إشادة بالقلم وخطره، وبالعلم ومنزلته في بناء الشعوب والأمم، فما أصدقها من طلائع تجعل العلم والمعرفة من أخص خصائص الإنسان»[5]، فبه أرشد من العمى، ومن الضلالة هدى.

كما تجسد فيها «تصوير حي لأضخم حدث في تاريخ البشر شهدت به الإنسانية نفسها تولد ميلاد جديد يصلها بالسماء وأسرارها ولا يلصقها بالأرض وأوحالها، فيوجه المقطع الأول من هذه السورة محمد رسول الله

(١) ابن حجر، «فتح الباري»، (٩/٤٠).
(٢) غانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (٣٣).
(٣) وهو قول الجمهور، ويكاد يكون إجماعًا، انظر: «الإتقان» للسيوطي (١/٩١)، و«المحرر» لمساعد الطيار (٧٩- ٨٢).
(٤) الطاهر بن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٣٠/٤٣٥).
(٥) أبو شهبة، «السيرة النبوية»، (١/٢٦٠). و«علوم القرآن» للعتر (٣٦)، و«تيسير التفسير» لإبراهيم القطان (٣/٤٤١).

إلى الاتصال بالملأ الأعلى والقراءة باسم الله، فمنه المنشأ وإليه المصير، وهو الذي كرم الإنسان بتعليمه أسرار الوجود، وتمكينه من استعمال «القلم» رمز العلم والتعليم،...»[1]، «فلله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور»[2].

وأما آخر ما نزل[3] فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة:٢٨١]، وفيها من براعة الاختتام، أبلغه وأتمه، رحم الجليل سبحانه عباده فذكرهم بتقواه، وحثهم على العمل بما يرضاه، وأعد لهم الجزاء الأوفى، ووعدهم المغفرة وعدم الظلم ووعده مُوفًّى.

رحمهم بتاء الخطاب تذكيرًا، ورحمهم بياء الالتفات توقيرًا، به ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ «رفقًا من الله سبحانه بصالحي عباده المطيعين لأمره. وذلك أن العود إلى الله للحساب أعظم ما يخوَّفُه ويُتَوعَّدُ به العباد، فإذا قرئ: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾... فقد خوطبوا بأمر عظيم...، فكأنه تعالى انحرف عنهم بذكر الرجعة فقال: ﴿تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[4]، جميعًا، أبرار وفجارًا.

تلك بعض جوانب الرحمة في المكي والمدني من القرآن وتوابعهما، والمتأمل ممن فتح الله عليه يُكشف له ما هو أكثر، وفوق كل ذي علم عليم.

(١) صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، (١٨٦).
(٢) السعدي، «تيسير الكريم»، (١٨٦).
(٣) على الراجح في المسألة قال القرطبي هذا القول: « أَعْرَفُ وَأَكْثَرُ وَأَصَحُّ وَأَشْهَرُ » "الجامع لأحكام القرآن" (٣٧٥/٣)، وانظر: "فتح الباري" لابن حجر (٢٠٥/٨)، و"الإتقان" للسيوطي (١٠١/١-١٠٢).
(٤) ابن جني، «المحتسب»، (١٤٥/١)، وانظر: «المحرر» لابن عطية (٣٧٨/١)، و«الجامع» للقرطبي (٣٧٦/٣).

المبحث الرابع
معالم الرحمة في أسباب النزول

ووجه ارتباطه بما قبله أن تنزل القرآن الكريم جملة ومنجمًا، مكيًا ومدنيًا، لم يكن إلا لهداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، وزادت آيات على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت مبحث «أسباب النزول»، وعليه فآي القرآن قسمان:

الأول: ما نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو مرتبط بالسبب العام وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.

الثاني: قسم نزل مرتبطًا بسبب من الأسباب الخاصة يسميه العلماء «سبب نزول الآية»، وآيات هذا القسم هي الأقل[1]. جملة تلك الأسباب الخاصة هي ما اصطلح على تسميته «سبب النزول أو سبب التنزيل»: «وهو ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه»[2]، ونحو ذلك. وهذه الأسباب في الحقيقة: «ما هي

(١) فهد الرومي، «دراسات في علوم القرآن»، (١٣٥). وانظر: «الإتقان» للسيوطي (١٠٧/١)، «الفوز الكبير» للدهلوي (٣١).

(٢) وهو ما اختير تعريفا لسبب النزول، انظر: «الإتقان» للسيوطي(١١٦/١)، وأما علم أسباب النزول فهو العلم المهتم بهذه المسائل.

إلا مناسبات لا أسباب حقيقة، وإن سميت أسبابًا على طريقة التسامح والتجاوز»[1]، فليس نزول القرآن الكريم متوقفا على وجود تلك الحوادث، وإنما جعلها الله واقعة قدرا، وأنزل القرآن الكريم إثرها بيانًا لشرعه، وإنفاذا لحكمه، على مقتضى حكمته حالًا ومآلًا، ولذلك المعنى أيضًا اتفقت كلمة أهل العلم: «على أن ما يدل عليه الكلام القرآني، هو الذي يؤخذ به، على ما في دلالته من عموم واتساع،... وهو معنى قول علماء أصول الفقه: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[2].

ومن ذينك القسمين نتلمس بعض معالم رحمة الله بخلقه في تنزيل القرآن، وأسبابه، فلئن كان تنزيل آي الذكر الحكيم ابتداء من غير سبب قد ظهرت فيه معالم رحمة الله بخلقه في هدايتهم، وعنايته بهم، توجيها وإرشادًا، عقيدة، وشريعة، وآدابًا، وقصصًا، ووعدًا، ووعيدًا. فإن معالم رحمته ومزيد عنايته في ما نزل بسبب أشد ظهورا، وأكثر وضوحًا، بل هو الحال الذي تقصر عنه عبارات الفصيح تصويرًا لتلك العناية الفائقة من الرحمن سبحانه بعباده، حين تسير أحداث البشرية على ما يوافق سابق قضاء الله وقدره، فتأتي آيات الذكر توضح شرعه ومرضاته، في حكمة بالغة، ومقاصد باهرة، رحمة بعد رحمة، عامة فخاصة، خاصة فأخص، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة:١٠٥].

تلك الأسباب التي ترى فيها البصائر الحية متابعة الله تعالى حياة خلقه وعباده، وتغيرها، وإنعامه سبحانه عليهم بما يهديهم إلى سبيله القويم، وصراطه المستقيم، وبما يصحح لهم العقائد والأحوال، الظاهرة

(١) محمد الفاضل بن عاشور، «التفسير ورجاله»، (١٥)، وغانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (٢١١)، إذ الأسباب في تعريفها: ما يُوجد المسبَّبَ، سواء أكان السبب تاما أو غير تام، انظر: «التعريفات» للشريف الجرجاني (٦٩).

(٢) محمد الفاضل بن عاشور، «التفسير ورجاله»، (١٥).

والباطنة، من الأقوال والأفعال، فاستحضار العبد نظر الله إليه، ومراقبته له، ومتابعته أحواله من المقامات التي تطرب لها قلوب المقربين، وتخشع لها قلوب أصحاب اليمين، وتخضع لها رقاب المكذبين.

تلك الأسباب التي على اختلاف ما ينزل إثرها من آي الذكر الحكيم تملأ قلوب المؤمنين يقينًا باستشعار رقابة الله لهم، ويحس منها الكفار لوعة مما أدركوا من قدرة الله عليهم، وإحاطته بهم، وفي ذلك من الزجر لهؤلاء، والرأفة بأولئك ما يعجز عن إدراك كنهه كل حكيم، فهو به تلك، ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾.

الأسباب التي أوضحت لمن نزلت الآيات فيهم مدى رعاية الله سبحانه لهم، ورحمته بهم، وهو يسوقهم إلى العمل قدرًا، ويبينه لهم شرعًا وأمرًا، ثم يتوب عليهم ويمحو عنهم وزرًا، تلك التي أعلت مقام الصادقين تخليدًا لأسمائهم، وإشادة بأعمالهم، ونشرًا لفضلهم. بل لقد وافق الرب الجليل بعضهم حتى أنزل الآيات على ألفاظ مقالهم[1]، فيالهول المقام لمن تأمله، وما أعظم إحسان الجليل عليهم لمن تدبره، أن يوافق السيد العظيم المستوي على عرشه فوق خلقه، أن يوافق قول أحد عبيده الضعفاء كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، إنه لإحسان عظيم من السيد، رحمة وامتنانًا، وإنه لمقام كريم لذلك العبد الضعيف، خشوعًا واستبشارًا ويقينًا.

تلك الأسباب التي تحمل في طياتها ما يرسخ في النفوس عقيدة التوحيد، وانفراد الله القدير بالملك والتدبير، كيف لا وهم يرون أفضل الخلق رسول الهدي ﷺ يقف عن كل حديث، يقف عن أي: تقدم بين يدي الله الواحد القهار، وهو ينتظر حكمه تعالى فيما يعتريه من أسئلة وأحوال، قد اشتد على المؤمنين في بعضها الحال، وقد علم الله لهم بما يُنَزِّل يُسر المآل.

(١) وبوب عليها السيوطي بقوله: « فيما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة » "الإتقان" (١٢٧/١).

ثم إن في ارتباط نزول الآيات بمناسبة معينة، حكمة تشريعية، وتربوية عظيمة، تجعل من الحكم الذي تتضمنه تلك الآيات تجربة واقعية، وتطبيقًا عمليًا في المجتمع، يتم تحت نظر النبي ﷺ وتوجيهه، ويدرك حكمة التشريع الذي تتضمنه تلك الآيات كل من كان شاهدًا وقت نزولها، وكل من وقف على تلك المناسبة وعرف قصتها، فنزول الحكم وقت الحاجة إليه يكون أبعد أثرًا في نفوس المخاطبين، ويكونون أكثر استجابة له[١]، وأكثر استحضارًا له متى تشابه الحال، وأسير عليهم حفظًا متى تشابهت الألفاظ، وأكثر تمرسًا وإدراكًا لمعاني العبارات، متى زاغت عنها الأعين الناظرات[٢].

كما أن في إدراك حكمة الله سبحانه في شريعته المستفاد من أسباب النزول، في ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن، أما المؤمن فيزداد إيمانًا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفًا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان خصوصًا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد[٣].

ومن فروع باب أسباب النزول المهمة فرعان، أنبه على بعض معالم الرحمة فيهما:

فأما أولهما: فهو (تعدد الآيات النازلة، واتحاد السبب)[٤]، وفي ذلك

(١) ()-غانم قدوري، «محاضرات في علوم القرآن»، (٣٦)، ومناع القطان، «مباحث في علوم القرآن»، (٧٥).
(٢) ()-الزرقاني، «مناهل العرفان»، (٩٥/١).
(٣) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (٩١/١).
(٤) السيوطي، «الإتقان»، (١٢٤/١).

من الفضل ومزيد الرحمة والامتنان ما هو ظاهر للعيان، فما من شك أن كل آية نزلت قد زفت للمؤمنين ألوان البشائر، تلاوة وترتيلًا، تدبرًا وتأملًا، حُكمًا وتشريعًا، امتثالًا وانقيادًا، اغتنامًا وأجرًا، كما أن فيه من الإقناع وظهور الحجج المتعددة، وتمام البيان ما هو ظاهر، ترتقي به قلوب المؤمنين في معارج الهدى والإيمان، وأما غيرهم فزادتهم رجسا إلى رجسهم.

وأما ثانيهما: فهو (ما تكرر نزوله)[1]، وفي هذا التكرر مزيد إنعام وفضل وإحسان، من الرب الرحمن، كيف لا فهو أعظم دلالة على عظمة ما نزل وتكرر، لئلا تغفل عنه القلوب، والأبصار، فيترقبوا غيره تنزيلًا، وهو بين أيديهم واضحًا دليلًا، كيف لا وهو من أوضح تجليات رحمة المنعم إذ يُذكِّر عباده ما ينفعهم، وينزل عليهم ما نزل فيستقر به حفظهم، وتتمكن به في الاستنباط ملكاتهم، وهم يرون اتفاق الأحكام في اختلاف الأحوال والأيام، وهو ما يوضح لهم الحِكم الربانية، والمقاصد الدينية.

وينبه أخيرًا إلى أن مما تتنازعه مباحث الموضوع، ذكر أول ما نزل من القرآن، وآخر ما نزل منه، ومعالم الرحمة فيهما، فقرابتهما بمبحث أسباب النزول وأحواله كأبناء العمومة، وقرابة أول ما نزل من القرآن المكي، وقرابة آخر ما نزل من القرآن المدني قرابة ظاهرة معلومة، ولمقام ذلك التنازع قدمت ذكرهما في المبحث السابق، (معالم الرحمة في المكي والمدني)، على اعتبار أن أول ما نزل من القرآن الكريم لم يكن له سبب خاص، وكذا آخر ما نزل منه على الأرجح كما تقدم.

(١) عند من أجاز ذلك من أهل العلم، كابن الحصار، والزركشي، والسيوطي، انظر: «الإتقان» (١/١٣٠)، وهو من المسائل الجديرة بالبحث والتمحيص، لارتباطها بجملة من العلوم الأخرى، كالمتشابه اللفظي للقرآن، وعلم القراءات، وأسباب النزول.

المبحث الخامس
معالم الرحمة في المنسوخ والناسخ[1]

يهتم علماء القرآن[2] بتقديم الناسخ الذي استقر حكمه شرعًا، أما بحثنا فنظره إليهما من حيث التنزيل، فسبق المنسوخ لا يحتاج إلى دليل، أنزلهما الله لحكمة، وضمَّنهما معالم الرحمة، ومع اختلاف الأئمة في هذا المبحث طويلًا تفريعًا وتأصيلًا، فقد اتفقوا على أصله لدلالة النصوص الشرعية عليه، ومما جاء فيه من آي التنزيل الحكيم، قول الرحمن الرحيم: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل:١٠١-١٠٢].

وبعيدًا عن الاختلافات الواسعة في باب الناسخ والمنسوخ، نقصر

(١) كلاهما من مادة (نسخ) وهي في اللغة لمعنى: النقل والإزالة والتغيير، قال ابن فارس: «أصلٌ واحد، إلاّ أنّه مختلفٌ في قياسِه. قال قوم: قياسُه رفْعُ شيءٍ وإثباتُ غيرِه مكانَه. وقال آخرون: قياسُه تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ» «معجم المقاييس» (٥/٤٢٤)، وانظر: «القاموس» (٢٦١)، ويطلق الناسخ اسم الفاعل على الشارع، والنص الناسخ، والحكم الناسخ، وأما المنسوخ اسم المعول فواحد، وفي اصطلاح أهل العلم النسخ هو: « رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متأخر عنه » "المهذب في علم أصول الفقه" لعبد الكريم النملة (٢/٥٣٠)، وانظر أيضًا:

(٢) مبحث النسخ من المباحث المشتركة بين علوم القرآن الكريم، وعلم أصول الفقه، وهو في الثاني أوسع لاعتنائه بالنسخ في نصوص السنة النبوية، ولمقام هذا التداخل اكتسى هذا البحث صعوبة أخرى في تعدد مصادره ومظانه، وكثرة مادته، ولذا اقتصرت فيه على ما تضمنته كتب علوم القرآن غالبًا.

الكلام هنا على ما يناسب المقام، إشارة إلى أوجه رحمة الله بخلقه في تنزيله الناسخ عقب المنسوخ، وقد أشار علماؤنا إلى بعض ذلك ضمن أوجه الحكمة من النسخ عمومًا، وخصوصًا، وهو ما سنشير إليه فيما يأتي مع شيء من الزيادة، فأقول:

قد نبه الأئمة رحمهم الله على مدى الرحمة الإلهية البارزة في نسخ الله تعالى الأحكام بعضها ببعض، ولهم في ذلك أقوال مأثورة، منها: قول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٢٠٤هـ) في «الرسالة»: «وأنزل عليهم الكتاب تِبْياناً لكل شيء، وهُدًى ورحمةً، وفرض فيه فرائض أثبتها، وأُخْرَى نسَخَها، رحمةً لِخَلْقه، بالتخفيف عنهم، وبالتوسعة عليهم، زيادة فيما ابتدأهم به من نِعَمه. وأثابَهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم: جَنَّتَه، والنجاة من عذابه؛ فعَمَّتْهم رحمتُه فيما أثبت ونسخ، فله الحمد على نعمه»[1]، وقال السخاوي (ت ٦٤٣هـ): «وحكمة النسخ اللطف بالعباد وحملهم على ما فيه إصلاح لهم»[2]، فالنسخ ليس عبثًا من الله بل هو الحكمة منه سبحانه المنطوية على: «إِرَادَةَ الصَّلاحِ لِلْعِبَادِ وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ الْعَاقِبَةَ فِي ذَلِكَ وَعَلِمَ وَقْتَ الْأَمْرِ بِهِ -المنسوخ- أَنَّهُ سَيَنْسَخُهُ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ»[3]. ثم قد تناول علماؤنا هذا المبحث درسًا من جهات أهمها:

أولًا: من حيث النصوص الشرعية، وأيها ينسخ الآخر.

ثانيًا: من حيث الحكم والتلاوة للنصين المنسوخ والناسخ، بقاء وعدما.

ثالثًا: من حيث حكم البدل ثقلًا وخفة، مقارنة بالمنسوخ.

رابعًا: من حيث البدل في النسخ، وجودًا على ما هو الأكثر، وعدمًا على ما هو النادر.

(١) الشافعي، «الرسالة»، (١٠٦)، وانظر أيضًا: «قلائد المرجان» لمرعي بن يوسف الكرمي (١٩).
(٢) السخاوي، «جمال القراء»، (٣٣٥/١).
(٣) ابن النحاس، «الناسخ والمنسوخ»، (٦٢/١).

ضمن هذه النقاط الأربعة تكلم علماؤنا في موضوع حِكَم النسخ، منهم: الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز»[١]، والزركشي في «البرهان»[٢]، والسيوطي في «الإتقان»[٣]، واستجمع كل ذلك الزرقاني في «مناهل العرفان»، بتفصيل وطول بيان، وباستثناء النقطة الأولى، أعرض فيما يلي ما ذكره علماؤنا من حكم النسخ، ومعالم رحمة الله بخلقه فيه، مع شيء من الاختصار، وابتداء بالأخيرة منها، لفًا ونشرًا معكوسًا أقول:

أولًا: إن النسخ إلى غير بدل رحمة من الله في ابتلاء خلقه، واختبار امتثالهم، زيادة في الحسنات، ورفعًا للدرجات، مع ما في النسخ من تخفيف، وإنقاص للتكاليف[٤]. وأما ما كان نسخًا إلى بدل فذلك الذي كثرت أفراده في القرآن الكريم، وفيه من وجوه الرحمة ودلائلها، ما في النقطتين الآتيتين أكشف عنها.

ثانيًا: أجاب هبة الله بن سلامة رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٤١٠هـ) عن سؤال في آية سورة البقرة ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾، وضمَّن جوابه بيان الحكمة المتعلقة بالناسخ والمنسوخ من حيث ثقل الحكم وخفته، فقال: «فَالْجَوَاب أَن معنى: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أَي: أَنْفَع مِنْهَا، لأَن النَّاسِخ لا يَخْلُو من إِحدى النعمتين: إِمَّا أَن يكون أثقل فِي الحكم فَيكون أوفر فِي الْأَجر، وَإِمَّا أَن يكون أخف فِي الحكم فَيكون أيسر فِي الْعَمَل»[٥]، وفي كل منهما رحمة من الله بخلقه واضحة المعالم، وصور الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ تلك الحكم والرحمات في أسلوب بديع، مضيفًا للوجه الذي يتساوى في المنسوخ وبدلُه حكمًا، في كلام أنقله بحروفه، قال:

(١) «بصائر ذوي التمييز»، (١/١٢١).
(٢) «البرهان»، (٢/٣٧، ٣٩).
(٣) «الإتقان»، (٣/٦٧، ٧٧، ٨١).
(٤) انظر: «مناهل العرفان» للزرقاني (٢/١٧٢).
(٥) هبة الله بن سلامة، «الناسخ والمنسوخ»، (٢٨).

«من هنا جاءت الشريعة إلى الناس تمشي على مهل متألِّفة لهم متلطِّفة في دعوتهم متدرِّجة بهم إلى الكمال رُويدًا رويدًا، صاعدة بهم في مدارج الرقي شيئًا فشيئًا، منتهزة فرصة الألف والمران والأحداث الجادة عليهم، لتسير بهم من الأسهل إلى السهل، ومن السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب، حتى تم الأمر ونجح الإسلام نجاحًا لم يعرف مثله، في سرعته وامتزاج النفوس به ونهضة البشرية بسببه!. تلك الحكمة على هذا الوجه تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ، كموقف الإسلام في سموه ونبله من مشكلة الخمر في عرب الجاهلية بالأمس.

أما الحكمة في نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه، فالتخفيف على الناس ترفيهًا عنهم، وإظهارًا لفضل الله عليهم، ورحمته بهم، وفي ذلك إغراء لهم على المبالغة في شكره، وتمجيده، وتحبيب لهم فيه، وفي دينه.

وأما الحكمة في نسخ الحكم بمساويه في صعوبته، أو سهولته فالابتلاء، والاختبار ليظهر المؤمن فيفوز، والمنافق فيهلك، ليميز الخبيث من الطيب.»[1].

ثالثًا: تلك العلاقة الرابطة بين حكم النص وتلاوته، بقاء وعدمًا، وهي التي جعل العلماء قسمتها على ثلاثة أضرب[2]: ما نُسِخ تلاوة وحكمًا، ما نُسِخ تلاوة وبقي حكمه، وعكسه ما نُسِخ حكمًا وبقي تلاوة.

فأما أولها: فكان بلا ريب رحمة بالناس، ورفقا بهم في إصلاح

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١٥٣/٢)، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (٨)، و«المصفى» لابن الجوزي (١٢).

(٢) انظر: «البرهان» للزركشي (٣٥/٢)، و«الإتقان» للسيوطي (٧٠/٣)، وهي على هذا الترتيب التصاعدي من حيث كثرتها، فأولها أقلها، وآخرها أكثرها وهذا الضرب هو الذي في الكتب المؤلفة في هذا العلم، قال السيوطي: «وهو على الحقيقة قليل جدا وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه» «الإتقان» (٧١/٣).

أحوالهم بالتدرج في تكليفهم، فلما انتهى أمده، وتحققت غايته، رفع الحكم والتلاوة ليحل محلهما غيره من الأحكام بعدما تهيأت النفوس، وأقبلت القلوب على شرع علام الغيوب.

وأما ثانيهما: وهو نسخ التلاوة دون الحكم، ففيه من أوجه الرحمة والحكمة ما تتضمنه سائر أفعال الله تعالى، الفتاَّح بالعلم على مَن عَلمها، وليس جَهلُها نافيًا لوجودها[1]، ومما ظهر لي:

- بيان كمال قدرة الله تعالى، وتمام أمره فهو الذي يُبقى ما يشاء ويَرفع ما يريد، وفي رَفع ما رُفع تذكير للعبيد ببقاء ما بقي، فيُعتنَى به تلاوة وحفظًا، قبل أن يأذن الله برفع جميعه آخر الزمان، فالقرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وذاك البيان تضمن تعريفًا للعباد بصفات الله وأفعاله، فكفى به منة ورحمة، أن يتفضل المجيد بتعريف نفسه للعبيد.
- أن في ذلك اختبارًا وابتلاء[2]، فما أعظمها من رحمة لمن نجح حين اختُبِر، وحين الابتلاء صبر، وهل في الابتلاء والاختبار إلا رفع الدرجات، ومزيد الحسنات، وتلك بعض وجوه الرحمات، وهل كان إعمال الناسخ وإهمال المنسوخ، إلا في جيل الرسوخ، جيل القرآن والتنزيل، فكان عليهم بالمنسوخ الابتلاء، وبقي لهم ولنا بالناسخ كل صفاء، رحمتان لهم واحدة لمن جاء بعدهم، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة:١٠٥].

وأما الثالث من الأقسام، وهو أكثرها فهو يكشف سياسة الإسلام الرشيدة الحكيمة «للناس حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق، وأن نبيه نبي

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (٢/ ١٧٠- ١٧١).
(٢) الزركشي، «البرهان»، (٢/ ٣٧)، وهو مضمون ما نقله عن ابن عقيل صاحب «الفنون» جوابًا عن حكمة هذا النوع من النسخ.

الصدق، وأن الله هو الحق المبين العليم، الحكيم الرحمن الرحيم، يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة، ومن قيام معجزات بيانية، أو علمية أو سياسية بها»[1]، يضاف إلى أوجه الرحمة والحكمة تلك «أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا يُتْلَى لِيُعْرَفَ الْحُكْمُ مِنْهُ، وَالْعَمَلُ بِهِ، يُتْلَى لِكَوْنِهِ كَلامَ اللَّهِ تَعَالَى فَيُثَابُ عَلَيْهِ فَتُرِكَتِ التِّلاوَةُ لِهَذِهِ الْحِكْمَةِ»[2]، زيادة إلى ذلك «أَنَّ النَّسْخَ غَالِبًا يَكُونُ لِلتَّخْفِيفِ فَأُبْقِيَتِ التِّلَاوَةُ تَذْكِيرًا بِالنِّعْمَةِ وَرَفْعِ الْمَشَقَّةِ»[3].

وإذ أكتفي -على استحياء- في هذا المبحث الطويل بما تقدم من كلمات قليلات، أتمم ذلك بتنبيهين:

أولهما: لقد جعل رب العالمين الإسلام الدين القويم، مهيمنًا على الأديان جميعها، وناسخًا لشرائعها، فكان التنزيل كتاب الإسلام، رحمة لجميع الأنام، منزلًا على سيد المرسلين، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وقد أخذ بعض المفسرين[4] هذا المعنى الحق العجاب من قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد:٣٩].

ثانيهما: أن ما يُذكر من أوجه رحمة وحِكم لأنواع النسخ، إنما هي على الإجمال، وتحت كل آية ناسخة ومنسوخة تنطوي حكم ورحمات خاصة بها، لا تطيق العقول إدراكها إحاطة، وتعجز الفصاحة عن تصويرها كاملة، فهي من علم الله الجليل، فأنى الإحاطة به للعقل العليل، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ١١٠﴾ [طه:١١٠].

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (٢/١٥٣).
(٢) الزركشي، «البرهان»، (٢/٣٩).
(٣) الزركشي، «البرهان»، (٢/٣٩). وانظر: «الإتقان» للسيوطي (٣/٧٧- ٧٨).
(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/٦٦٤)، و«مناهل العرفان» للزرقاني (٢/١٤٤، ١٥٢).

المبحث السادس
معالم الرحمة في الأحرف السبعة

وسبب إيراده ضمن مباحث هذه الورقة البحثية، ما جاء صريحًا عن المصطفى ﷺ حين قال لقراءة كل من عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم رضي الله عنهما: «هكذا أنزلت»[١]، أو «كذلك أنزلت»[٢]. فمرد التغاير فيها إلى التنزيل[٣]، فليس هو على البحث بدخيل، قال ابن قتيبة رحمه الله (ت ٢٧٦هـ): «وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء»[٤].

ومعلوم لدى الدارسين أن مبحث الأحرف السبعة «مبحث طريف وشائق، غير أنه مخيف وشائك»[٥]، ومع تواتر النصوص النبوية في معنى الأحرف السبعة، فقد اختلف في تحديد معناها اختلافًا قل نظيره، ومن بين تلك الاختلافات، وددت إخراج معالم الرحمة خالصات سائغات،

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧، ٤٧٥٤، ٦٥٣٧)، ومسلم (٨١٨)، وغيرهما
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٠٦، ٧١١١)، وغيره.
(٣) هل هو مطرد في الاختلاف جميعه، اختلف في ذلك، وأولى الأقوال بالقبول ما ذهب إليه السمرقندي رحمه الله في «بستان العارفين» (٣٢٧)، القائل بالتفريق بين القراءات التي تغايرهما له أثر في المعنى والتفسير كـ: (ملك، ومالك، ويَطْهُرن ويطَّهَّرنّ)، وبين التي تغايرها تغاير لغات فقط كـ: (البُيوت، البِيوت)، وانظر لهذه المسألة: «البرهان» للزركشي (٣٢٦/١)، و«القراءات القرآنية» لعبد الحليم قابه (٤٧- ٤٨).
(٤) ابن قتيبة، «تأويل مشكل القرآن»، (٣٢).
(٥) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١١٦/١).

اعتمادًا على الأحاديث النبويات الصحيحات، وما نص عليه الأئمة الهداة، فمما صح في باب الأحرف السبعة:

ما جاء في حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم ﷺ، وقول النبي ﷺ لهما: «إنَّ هذا القرآن أُنْزل على سبعة أحرف فاقرءُوا ما تَيَسَّر منه»[١]، أي: من هذا القرآن المنزل على سبعة أحرف، فإنه لم يكن كذلك إلا تيسيرًا.

يوضح ذلك ما جاء في حديث أبي بن كعب ﷺ لما ترافع مع من خالفاه في القراءة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن ربي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوِّن على أمتي»[٢]، وفي رواية: «خفف عن أمتي»[٣]، ففي زيادة الأحرف مزيد تهوين وتيسير وتخفيف على الأمة المحمدية، وفي ذلك من الرحمة الإلهية بهذا التنزيل للأحرف ما هو ظاهر، ووجه هذا الطلب للتخفيف، وسببه بينته الروايات الأخرى، وجاء فيها قوله ﷺ: «إن أمتي لا تطيق ذلك»[٤]، وفي رواية: « لا تستطيع ذلك»[٥]، إن كُلِّفت بقراءة القرآن على حرف وحرفين، ولم تطق أمته ﷺ ذلك لما كان مبعوثًا إلى الناس جميعًا إلى: «أمة أميين منهم: العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قط»[٦].

إن وضوح هذه النصوص النبوية في بيان معالم الرحمة في تنزيل الأحرف السبعة[٧] لن يثنينا عن استعراض كلام بعض أهل العلم توضيحًا لمقصود المبحث، فمن ذلك:

(١) أخرجه البخاري (٢٢٨٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٨١٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٦)، وأحمد في «المسند» (٢١١٧١) وغيرهما.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١/٣٧).
(٤) أخرجه مسلم (١٨٥٦)، وأحمد في «المسند» (٢١١٧٢)، وأبو داود في «السنن» (١٤٧٨)، وغيرهم.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١/٣٨).
(٦) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٢٩٤٤)، وأحمد في «المسند» (٢١٢٠٤)، وغيرهم.
(٧) عبدالعزيز القاري، «حديث الأحرف السبعة»، (٨١).

قول ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٢٧٦هـ): «... ويسّر على عباده ما يشاء. فكان من تيسيره أن أَمره بأن يُقرىء كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم فالهذليّ يقرأ ... والأسديّ يقرأ :... والتّميميّ يهمز. والقرشيّ لا يهمز... ولو أن كل فريق من هؤلاء، أمر أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلًا وناشئًا وكهلًا- لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للّسان، وقطع للعادة. فأراد الله، برحمته ولطفه، أن يجعل لهم متّسعًا في اللغات، ومتصرّفًا في الحركات، كتيسيره عليهم في الدّين»[١].

قول أبي عمرو الداني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٤٤٤هـ): « وَأما وجه إِنْزَال الْقُرْآن هَذِه السَّبْعَة أحرف وَمَا الَّذِي أَرَادَ تبَارك اسْمه بذلك فَإِنَّهُ إِنَّمَا أنزل علينا توسعة من الله تَعَالَى على عباده وَرَحْمَة لَهُم وتخفيفًا عَنْهُم عِنْد سُؤال النَّبِي ﷺ إِيَّاه لَهُم ومراجعته لَهُ فِيهِ لعلمه ﷺ بِمَا هم عَلَيْهِ من اخْتِلَاف اللُّغَات واستصعاب مُفَارقَة كل فريق مِنْهُم الطَّبْع وَالْعَادَة فِي الْكَلَام إِلَى غَيره فَخفف تَعَالَى عَنْهُم وَسَهل عَلَيْهِم بِأَن أقرهم على مألوف طبعهم وعادتهم فِي كَلَامهم»[٢].

وثمة كلام كثير لغيرهما من الأئمة كالطحاوي (ت ٣٢١هـ) في «شرح مشكل الآثار»[٣]، وأبي شامة (ت٦٦٥ هـ) في «المرشد»[٤]، والزركشي (ت٧٩٤ هـ) في «البرهان»[٥]، وغيرهم. خلاصتها أن مبحث الأحرف السبعة «يرينا مظهرًا من مظاهر رحمة الله، وتخفيفه على عباده، وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية

(١) ابن قتيبة، «تأويل مشكل القرآن»، (٣٢).
(٢) الداني، «الأحرف السبعة»، (٣١).
(٣) «شرح مشكل الآثار»، (١٢٤/٨).
(٤) «المرشد الوجيز»، (٩٠).
(٥) «البرهان»، (٢٢٧/١).

من كل جيل وقبيل، حتى ينطقوا به لينة ألسنتهم سهلة لهجاتهم برغم ما بينهم من اختلاف في اللغات، وتنوع في الخصائص والميزات»[1].

كانت تلك الأحرف كفيلة بتحقيق مقصودها من التيسير على الأمة يومها، ورحمة من الباري سبحانه عليها بها، مع ما حملته من فوائد وعوائد لمن بعدها، فقد كانت مع اقترانها بغيرها من ظروف الزمان والمكان، ورعاية الحال والمآل سببًا في ظهور رحمات أخرى، وفوائد تترى، فامتزاج الأحرف السبعة مع العرضة الأخيرة، وسير الجميع مع عوامل الزمان والمكان، وتغير أحوال من جاء بعد زمن التنزيل، اقتضى جمع القرآن الكريم زمن عثمان ﷺ مقتصرًا على بعض تلك الأحرف، ومع امتداد الزمان، وميل النفوس للاقتصار، استقر الأمر على ما كان للعشرة القراء من الاختيار، وحملت تلك القراءات في طياتها عبقًا من رحمات الباري المتجددة على أمة الإسلام عبر تعاقب الأيام، فهاهي القراءات القرآنية تُفجِّر للباحثين ينابيع العلم، وروافد الفقه، يهزون أصلها فكرًا، فتساقط عليهم أنواع العلوم لغة وفقها، ثمرًا جنيًا، تنوع في الألفاظ والمباني، واتساع في المدارك والمعاني، في انضمام وائتلاف، وتنوع في الاختلاف، ترينا في ملامحها معالم رحمة منزلها، مستوجبة بكل حرف منها مزيد حمد وشكر له عليها.

(١) الزرقاني، «مناهل العرفان»، (١/١١٦).

الخاتمة

أهم النتائج والتوصيات، أجعلها في نقاط مختصرة كالآتي:

الكلام في موضوع تنزيل القرآن الكريم لا ينفك بحال عن مسألة كلام الله تعالى والخلاف فيها، فمن الضروري بالباحث أن يعلم هذه المسألة علمًا دقيقًا ليحسن التفريع فيها، فربما يغفل الذهن في التفريع فيخالف التأصيل.

إن الكلام في موضوعات القرآن الكريم وتنزيله كلام في أمور الغيب، فلا يقال فيها إلا ما دلت عليه نصوص الوحي، وما وراء ذلك إلا القول على الله بلا علم.

يلحظ المتأمل لأحوال نزول القرآن الكريم اختصاص جيل التنزيل بمزيد الرحمة والعناية في كل فرع من فروع البحث، ومباحثه الدالة على الرحمة في تنزيل القرآن كـ: المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والأحرف السبعة، ونحوها.

إن المتأمل والمتصفح لبعض كتب علوم القرآن يلحظ فيها جفاف العبارات، وخلوها عن ربط تلك العلوم بالجانب التربوي الروحي، الذي

يرقق القلوب، ويشعرها بربانية القرآن الكريم، وأن مصدره الإله العظيم الجليل.

ومن التوصيات المقترحة أن توضع دراسة لجملة من المسائل:

كمسألة تنجيم القرآن، واستجماع الآيات الدالة إشارة عليه صراحة وإشارة، وما يتبعه من مسائل.

ومسألة تكرر نزول الآيات القرآنية.

وكذا بعض مسائل تنزيل القرآن الكريم، ومن الذي أنزل القرآن من اللوح إلى بيت العزة؟ هل هو جبريل؟، أو الملائكة المطهرون؟.

وهل ترتيب آيات الذكر متفق بين اللوح وبيت العزة والمصاحف؟.

وهل صحيح أن ما في بيت العزة يوافق رسمه ما مصاحفنا؟.

كلها مسائل تحتاج إلى بسط وبيان، ولا أدعي عدم توفر ذلك غير أني لم أقف على ما تعلق به بحثًا وتمحيصًا.

هذا آخر ما رأيت تسطيرًا، ويعلم الله أني لم أرتضه تحبيرًا وتحريرًا، لاشتغال المحل والبال، بحركات العلة وعدم المناسبة والاستعجال، وعدم تيسُّر بعض الحال، والله المسؤول وهو ذو الرحمة، أن يرحم عبدًا أراد إرشادًا وإظهارًا لبعض صنوف رحماته الكثيرات، ونعمه السابغات، وآلائه الواصلات، فاللهم صلنا بك وبالقرآن الكريم تنزيلك، وبمحمد نبيك، وارحمنا برحمتك، إنك جواد كريم، والحمد لله أولًا وآخرًا، مُسرًّا وجاهرًا.

فهرس المصادر والمراجع

- **كتب التفسير وعلوم القرآن:**

١. آدم بومبا، «أسماء القرآن الكريم»، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٢. الآلوسي، «روح المعاني»، ت علي عطية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.
٣. البيضاوي، «أنوار التنزيل»، ت المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨ هـ.
٤. ابن جني، «المحتسب في القراءات الشواذ»، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٥. ابن الجوزي، «زاد المسير»، ت عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.
٦. حكمت بشير، «الصحيح المسبور»، دار المآثر المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٧. ابن أبي حاتم، «التفسير»، ت أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط٣، ١٤١٩هـ.
٨. الدهلوي، «الفوز الكبير»، عَرَّبَه سلمان النَّدوي، دار الصحوة القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.
٩. الداني، «الأحرف السبعة»، ت عبدالمهيمن طحان، مكتبة المنارة مكة، ط١، ١٤٠٨هـ.
١٠. الرازي، «مفاتيح الغيب»، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠ هـ.
١١. الزجاج، "معاني القرآن"، ت عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٢. الزرقاني، «مناهل العرفان»، ت فواز زمرلي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
١٣. الزركشي، «البرهان»، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ١٣٩١م.
١٤. الزمخشري، "الكشاف"، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ.
١٥. ابن أبي زمنين، "تفسير القرآن"، ت حسين بن عكاشة ومحمد الكنز، الفاروق الحديثة، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١٦. السخاوي، "جمال القراء"، ت مروان العطيَّة ومحسن خرابة، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
١٧. السعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، ت اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
١٨. السمرقندي، "بحر العلوم"،.
١٩. السيوطي، «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، دار الفكر.
٢٠. السيوطي، «الإتقان»، ت محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ -١٩٧٤م.
٢١. الشنقيطي، "أضواء البيان"، دار الفكر، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.
٢٢. أبو شهبة، "المدخل لدراسة القرآن الكريم"، مكتبه السنة القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٢٣. الشوكاني، "فتح القدير"، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ.
٢٤. أبو شامة، «المرشد الوجيز»، ت قولاج، دار صادر، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.
٢٥. صبحي الصالح، «مباحث في علوم القرآن»، دار العلم للملايين، ط٢٤، ٢٠٠٠م.
٢٦. ابن ضريس، "فضائل القرآن"، ت غزوة بدير، دار الفكر، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م.

٢٧. الطبري، "جامع البيان"، ت أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٢٨. الطاهر ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، الدار التونسية للنشر تونس، ١٩٨٤ هـ.
٢٩. عبد الحليم قابه، "القراءات القرآنية"، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٩م.
٣٠. عبد العزيز القاري، "حديث الأحرف السبعة"، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٣٢هـ- ٢٠٠٢م.
٣١. عبد الفتاح القاضي، "القراءات الشاذة وتوجيهها"، دار السلام، ط٢، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
٣٢. أبو عبيد، «فضائل القرآن»، ت مروان عطية وآخرون، دار ابن كثير، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٣٣. ابن عطية، «المحرر الوجيز»، ت عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
٣٤. علي العبيد، "حفظ القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٣٥. أبو علي الفارسي "الحجة للقراء السبعة"، ت قهوجي وجويجابي، دار المأمون، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
٣٦. غانم قدوري، "محاضرات في علوم القرآن"، دار عمار، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
٣٧. الفراء، "معاني القرآن"، ت أحمد النجاتي ومحمد النجار وعبد الفتاح الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، ط١.
٣٨. الفريابي، "فضائل القرآن"، ت يوسف جبريل، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
٣٩. فهد الرومي، "دراسات في علوم القرآن"، ط١٢، ١٤٢٤هـ -

٢٠٠٣م.
٤٠. الفيروز آبادي، "بصائر ذوي التمييز"، ت محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.
٤١. ابن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن"، ت إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية.
٤٢. القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ت البر دوني وأطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤ م.
٤٣. ابن القيم، "التبيان في أقسام القرآن"، ت محمد حامد الفقي، دار المعرفة.
٤٤. ابن كثير، "تفسير القرآن"، ت سامي سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٤٥. محمد أبو زهرة، "المعجزة الكبرى"، دار الفكر العربي.
٤٦. محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، دار المنار، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٤٧. محمد بازمول، «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام».
٤٨. محمد الشايع، "نزول القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٤٩. محمد عمر حويه، "نزول القرآن الكريم"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٥٠. محمد الفاضل بن عاشور، "التفسير ورجاله"، مجمع البحوث الإسلامية، ط٢، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٥١. محمد معبد، "نفحات في علوم القرآن"، دار السلام، ط٢، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
٥٢. مرعي بن يوسف الكرمي، "قلائد المرجان"، ت سامي عطا حسن، دار القرآن الكريم الكويت.

٥٣. مساعد الطيار، "المحرر في علوم القرآن".
٥٤. مكي بن أبي طالب، «الهداية في بلوغ النهاية»، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٥٥. مناع القطان، "مباحث في علوم القرآن"، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٥٦. ابن النحاس، «إعراب القرآن»، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ.
٥٧. ابن النحاس، «الناسخ والمنسوخ»، ت محمد عبدالسلام، مكتبة الفلاح الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ.
٥٨. نور الدين عتر، "علوم القرآن"، مطبعة الصباح، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
٥٩. هبة الله بن سلامة، "الناسخ والمنسوخ"، ت زهير الشاويش ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي،ط١، ١٤٠٤هـ.
٦٠. أبو هلال العسكري، "الوجوه والنظائر"،ت محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة، ط١٤٢٨،١هـ- ٢٠٠٧م.
٦١. الواحدي، "البسيط"، عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ.
٦٢. يحيى بن سلام، "التصاريف"، ت هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩ م.
٦٣. كتب السنة وعلومها، واللغة وأخرى:
٦٤. أحمد بن حنبل، «المسند»،ت شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون،مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
٦٥. البخاري، "الجامع الصحيح"، ت مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٦٦. البيهقي،«شعب الإيمان»، ت عبدالعلي حامد، مكتبة الرشد، الدار السلفية ط١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٦٧. الترمذي، "الجامع"، ت بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.
٦٨. ابن تيمية، "بيان تلبيس الجهمية"، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ١٤٢٦هـ.
٦٩. ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ت المحقق: عبدالرحمن قاسم، مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
٧٠. ابن حجر، "فتح الباري"، إ محب الدين الخطيب، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
٧١. ابن حجر، "نتائج الأفكار"، حمدي السلفي، دار ابن كثير، ط٢، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٧٢. الحميدي، "تفسير غريب ما في الصحيحين"، ت زبيدة محمد، مكتبة السنة، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٧٣. الدارمي، «السنن»، ت حسين سليم أسد، دار المغني للنشر والتوزيع السعودية، ط١، ١٤١٢هـ- ٢٠٠٠م.
٧٤. ابن دريد، «جمهرة اللغة»، ت رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٧م.
٧٥. أبو داود، "السنن"، ت شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٧٦. سعيد بن منصور، "السنن"،ت سعد آل حميد، دار الصميعي، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٧٧. ابن سيده، "المحكم"، ت عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٧٨. الشريف الجرجاني، "التعريفات"، إ مصطفى أبو يعقوب، مؤسسة الحسنى المغرب، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
٧٩. أبو شهبة، "السيرة النبوية "، دار القلم دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ.

٨٠. الشافعي، "الرسالة"، ت أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، ط١، ١٣٥٨هـ- ١٩٤٠م.
٨١. ابن أبي شيبة، «المصنف»، ت كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩هـ.
٨٢. الطحاوي، «شرح مشكل الآثار»، ت شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤١٥ هـ- ١٤٩٤م.
٨٣. عبد الكريم النملة، "المهذب في أصول الفقه المقارن"، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٨٤. ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، ت عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
٨٥. الفيروز آبادي، "القاموس المحيط"، ت مركز الرسالة...، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.
٨٦. ابن القيم، "رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه"، ت المديفر، دار عالم الفوائد.
٨٧. ابن كثير، "السيرة النبوية من البداية والنهاية"، مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٦م.
٨٨. المباركفوري، "الرحيق المختوم"، دار الهلال.
٨٩. مسلم، «الجامع الصحيح»، إ محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي.